أحلامٌ في قصرٍ(١)

كان فلانٌ ابنُ الأمير فلانٍ يتنبَّلُ في نفسه بأنَّه مُشتقٌّ ممَّن يضع القوانين لا ممَّن يخضع لها ، فكان تيَّاهاً صلِفاً(٢) يشمخُ على قومه بأنَّه ابن أمير ، ويختال في النَّاس بأنَّ له جَدَّاً من الأمراء ، ويرى مِنْ تجبُّره : أنَّ ثيابه على أعطافه كحدود المملكة على المملكة ؛ لأنَّ له أصلاً في الملوك .

وكان أبوه من الأمراء ؛ الَّذين ولدوا وفي دمهم شعاعُ السَّيف ، وبريقُ التَّاج ، ونخوةُ الظَّفر ، وعزُّ القهر والغلبة ، ولكنَّ زمنه ضرب الحصار عليه ، وأفضت الدَّولة إلى غيره(٣) ، فتراجعت فيه ملكات الحرب ، من فتح الأرض إلى شِراء الأرض ، ومن تشييد الإمارات إلى تشييد العِمارات ، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال ؛ وغبرَ دهرَه يملك ، ويجمع حتَّى أصبحت دفاتر حسابه كأنَّه (خريطة) مملكةٍ صغيرة .

وبعضُ أولاد الأمراء يعرفون : أنَّهم أولادُ أمراء ، فيكونون من التَّكبُّر والغرور كأنَّما رَضوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدُّنيا ، ولكن بشروط . . .

* * *

وانتقل الأميرُ البخيل إلى رحمة الله ، وترك المالَ ، وأخذ معه الأرقام وحدَها يُحاسَب عنها ، فورِثَه ابنه وأمرَّ يدَه في ذلك المال يبعثره ؛ وكانت الأقدارُ قد كتبت عليه هذه الكلمة : « غير قابل للإحسان ». فمحتها بعد موت أبيه ، وكتبت في مكانها هذه الكلمة : « جُمع للشَّيطان ».

أمَّا الشَّيطانُ فكان له عملٌ خاصٌّ في خدمة هذا الشَّابِّ ، كعمل خازن الثِّياب لسيِّده ، غير أنَّه لا يلبسه ثياباً ، بل أفكاراً ، وآراءً ، وأَخْيلةً . وكان يَجهدُ أن يُدخِل

---

(١) انبعثتْ خواطرُ هذه المقالة في نفس الرافعي على أثر كتابته مقالة (أحلام في الشارع) السابقة ، ولكنه لم يكتبها إلا بعد زمانه . (س) .

(٢) « صلفاً » : صَلِف الرجل : تكبَّر ، وتفاخر ، وتمدَّح بما ليس فيه .

(٣) « أفضت الدولة إلى غيره » : أي : انتقلت إلى غيره .

الدُّنيا كلَّها إلى أعصابه ؛ ليُخرج منها دنيا جديدةً مصنوعةً لهذه الأعصاب خاصَّةً ، وهي أعصابٌ مريضةٌ ، ثائرةٌ ، متلهِّبةٌ ، لا يكفيها ما يكفي غيرَها ، فلا تَبرحُ تسأل الشَّيطانَ بين الحين والحين : ألا توجد لذَّةٌ جديدةٌ غيرُ معروفةٍ ؟ ألا يستطيعُ إبليس القرنِ العشرين أن يخترعَ لذَّةً مبتكَرَةً ؟ ألا تكون الحياة إلا على هذه الوتيرة من صبحها لِصبحها ؟

كان الشَّاب كالَّذي يريد من إبليس أن يخترعَ له كأساً ، تسَع نهراً من الخمر ، أو يجدَ له امرأةً واحدةً ؛ وفيها كلُّ فنون النِّساء ، واختلافِهن . وكان يريد من الشَّيطان أن يعِينه في اللَّذة على الاستغراق الرُّوحانيِّ ، ويَغْمُره بمثل التجلِّيات القُدسيَّة ؛ الَّتي تنتهي إليها النَّفس من حِدَّة الطَّرب وحِدَّة الشَّوق ؛ وذلك فوق طاقة إبليس ، ومن ثمَّ كان معه في جهدٍ عظيمٍ حتَّى ضجر منه ذاتَ مرَّةٍ ، فهمَّ أن يرفع يدَه عنه ، ويدَعه يدخل إلى المسجد ، فيصلِّي مع بعض الأمراء الصَّالحين .

وهؤلاء الفسَّاق الكثيرون المال إنَّما يعيشون بالاستطراف من هذه الدُّنيا ؛ فهمُّهم دائماً الألذُّ ، والأجمل ، والأغلى ؛ ومتى انتهت فيهم اللَّذة منتهاها ولم تجدْ عاطفتهم من اللَّذات الجديدة ما يُسْعِدها ، ضاقت بهم ، فظهرت مظهر الَّذي يُحاول أن ينتحر ، وذلك هو الملل الَّذي يُبتلون به ؛ والفاسق الغنيُّ حين يملُّ من لذَّاته ، يُصبح شأنه مع نفسه كالَّذي يكون في نَفَقٍ تحت الأرض ويريد هناك سماءً وجوّاً يطير فيهما بالطَّيارة . . .

* * *

قالوا : واعترض ابن الأمير ذات يوم شحَّاذٌ مريضٌ ، قد أسنَّ ، وعجز ، يتحامَل بعضه على بعضٍ ، فسأله أن يُحسن إليه ، وذكر عَوَزَه[1] واختلاله ، وجعل يبثُّه من دُموعه وألفاظِه ؛ وكان إبليس في تلك السَّاعة قد صَرَف خواطر الشَّابِّ إلى إحدى الغانيات الممتنِعات عليه ، وقد ابتاع لها حِليةً ثمينةً اشتطَّ بائعِها في الثَّمن حتَى بلغ به عشرة آلاف دينارٍ ، فهو يريد أن يُهديها إليها ، كأنَّها قدَرٌ من قادرٍ . . وقَطَعَ عليه الشَّحَّاذُ المسكين أفكارَه المضيئة في الشَّخص المضيء ، فكان إهانةً لخياله السَّامي ، ووجد في نفسه غَضَاضَةً[2] من رؤية وجهه ، واشمأزَّ في عروقه دم

---

(١) « عوزه » : حاجته ، وفقره .

(٢) « غضاضةً » : عيباً ، وذلة ، ومنقصة .

الإمارة ، وتحرَّكت الوراثة الحربيَّة في هذا الدَّم . . .

ثمَّ ألقى الشَّيطان إلقاءَه عليه ، فإذا هو يرى صاحب الوجه القَذِر كأنَّما يتهكَّم به ، يقول له : أنت أميرٌ يبحث النَّاس عن الأمير الَّذي فيه ، فلا يجدون إلا الشَّيطان الَّذي فيه . وليس فيك من الإمارة إلا مثل ما يكون من التَّاريخ في الموضع الأثريِّ الخرِب . ولن تكون أميراً بشهادة عشرة آلاف دينارٍ عند مومِسٍ ، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقيرٍ . أنت أميرٌ ، فهل تُثْبت الحياة : أنَّك أميرٌ ، أو هذا معنى في كلمةٍ من اللُّغة ؟ إن كانت الحياة ؛ فأين أعمالك ؟ وإنِ اللُّغة فهذه لفظة بائدةٌ تدلُّ في عصور الانحطاط على قِسط حاملها من الاستبداد ، والطُّغيان ، والجبروت ، كأنَّ الاستبداد بالشَّعبِ غنيمةٌ يتناهَبُها عظماؤه ، فقِسْمٌ منها في الحاكم ، وقسمٌ في شِبه الحاكم يُترجَم عنه في اللُّغة بلقب أمير .

ألا قلْ للنَّاس أيُّها الأمير : إنَّ لقبي هذا إنَّما هو تعبير الزَّمن عمَّا كان لأجدادي من الحقِّ في قتل النَّاس ، وامتهانِهم . . . !

* * *

وكان هذا كلاماً بين وجه الشَّحاذ ، وبين نفسِ ابن الأمير في حالةٍ بخصوصها من أحوال النَّفس ، فلا جَرَم[١] أُهين الشَّحاذُ ، وطُرِد ، ومضى يدعو بما يدعو .

ونام ابن الأمير تلك الليلة ، فكان خَيَالته[٢] من دنيا ضميره ، وضمير الشَّحَّاذ : فرأى فيما يرى النَّائم : أنَّ مَلَكاً من الملائكة يهتف به :

ويلك ! لقد طردتَ المسكين تخشى أن تنالك منه جراثيم تمرض بها ، وما علمتَ : أنَّ في كلِّ سائلٍ فقيرٍ جراثيمَ أخرى ، تمرض بها النِّعمة ، فإنْ أكرمته ؛ بقيتْ فيه ، وإن أهَنتَه ؛ نفَضَها عليك . لقد هلكت اليوم نعمتُك أيها الأمير ! وٱستردَّ العارية صاحبُها ، وأكلت الحوادث مالك ، فأصبحت فقيراً محتاجاً ترومُ الكِسْرة من الخبز ، فلا تتهيَّأ لك إلا بجُهدٍ ، وعمل ، ومشقَّةٍ ، فاذهبْ ، فاكدحْ لعيشك في هذه الدُّنيا ، فما لأبيك حقٌّ على الله أن تكون عند الله أميراً .

قالوا : وينظر ابن الأمير فإذا كلُّ ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال ، وإذا

---

(١) « لا جرم » : لا بُدَّ ، ولا محالة .

(٢) « الخيالة » : ما يتراءى للنائم من الأشباح في نومه . (ع) .

الإمارة كانت وهماً فرضه على النَّاس قانون العادة ، وإذا التعاظم ، والكبرياء ، والتجبُّر ، ونحوها إنَّما كانت مكراً من المكر لإثبات هذا الظَّاهر ، والتعزُّزِ به ، وينظر ابن الأمير ، فإذا هو بعد ذلك صُعلوكٌ أبتر[١] ، مُعدِمٌ[٢] ، رَثُّ الهيئة كذلك الشَّحاذ ، فيصيح مغتاظاً : كيف أهملتني الأقدار ؛ وأنا ابن الأمير ؟

قالوا : ويهتف به ذلك الملك : ويحك ! إنَّ الأقدار لا تُدَلِّل أحداً ، لا مَلِكاً ، ولا ابن مَلِك ، ولا سُوقيّاً ، ولا ابن سُوقيٍّ ، ومتى صرتم جميعاً إلى التُّراب فليس في التُّراب عظمٌ يقول لعظمٍ آخر : أيُّها الأمير . . !

* * *

قالوا : وفكَّر الشَّابُّ المسكين في صواحبه من النِّساء ، وعندهنَّ شبابه ، وإسرافه ، ونفقاته الواسعة ، فقال في نفسه : أذهب لإحداهنَّ ! وأخذ سمْته[٣] إليها ، فما كادت تعرفه عيناها في أسماله ، وبَذاذته ، وفقره حتَّى أمرتْ به ، فجُرَّ بيديه ، ودُفع في قفاه ، ولكن دم الإمارة نزا في وجهه غضباً ، وتحرَّكت فيه الوراثة الحربيَّة ، فصاح ، وأجْلَب ، واجتمع النَّاس عليه ، واضطربوا ، وماج بعضهم في بعضٍ ، فبينا هو في شأنه ؛ حانت منه التفاتةٌ فأبصر غلاماً قد دخل في غمار الناس ، فدسَّ يده في جيب أحدهم ، فنشل كيسه ، ومضى .

قالوا : وجرى في وهم ابن الأمير أن يلحقَ بالغلام فيكْبِسه كبْسةَ الشُّرْطيِّ ، وينتزعَ منه الكيس ، وينتفعَ بما فيه ، فتسلَّل من الزِّحام ، وتبع الصَّبيَّ حتَّى أدركه ، ثمَّ كبسه ، وأخذ الكيس منه ، وأخرج الكنزَ ، فإذا ليس فيه إلا خاتمٌ ، وحجابٌ ، وبعضُ خَرزاتٍ ممَّا يتبركُ العامَّة بحمله ، ومفتاحٌ صغيرٌ . . .

فامتلأ غيظاً ، وفار دم الإمارة ، وتحرَّكت الوراثة الحربيَّة ؛ التي فيه ، وألمَّ الصَّبِيُّ بما في نفسه ، وحدَسَ على أنَّه رجل أفَّاقٌ[٤] مُتبطِّل ، لا نفاذَ له في صناعةٍ يرتزق منها ، فرثى لفقره ، وجهله ، ودعاه إلى أن يعلِّمه السَّرقة ، وأن يأخذه إلى

---

(١) « أبتر » : الذي لا عَقِب له ، وكل من انقطع عن الخير .

(٢) « معدم » : فقير .

(٣) « سمته » : قَصْده ، وطريقه .

(٤) « أفّاق » : هو الضارب في آفاق الأرض .

مدرستها ، وقال : إنَّ لنا مدرسةً ، فإذا دخلت القسم الإعداديَّ منها ؛ تعلَّمت كيف تحمل المِكْتل[1] فتذهب كأنَّك تجمع فيه الخِرقَ البالية من الدُّور حتَّى إذا سَنحتْ لك غفلةٌ ؛ انسللتَ إلى دارٍ منها ، فسرقتَ ما تناله يدُك من ثوبٍ ، أو متاعٍ ، ولا تزال في هذا الباب من الصَّنعة حتَّى تُحْكمه ، ومتى حذقتَه ، ومَهَرْتَ فيه ؛ انتقلت إلى القسم الثَّانوي . . .

فصاح ابن الأمير : اغرُبْ عنِّي ، عليك ، وعليك ، أخزاك الله ! ولعن الله الإعداديَّ ، والثَّانويَّ معاً .

ثمَّ إنَّه رمى الكيس في وجه الغلام ، وانطلق ، فبينا هو يمشي وقد توَزَّعتْه الهمومُ ، أنشأ يفكِّر فيما كان يراه من المُكدين ، وتلك العللِ التي ينتحلونها للكدْية[2] ، كالَّذي يتعَامى والَّذي يتعارج ، والَّذي يُحدِث في جسمه الآفة ، ولكنَّ دَم الإمارة اشمأزَّ في عروقه ، وتحرَّكت فيه الوراثة الحربيَّة !

وبَصر بشابٍّ من أبناء الأغنياء ، تنطق عليه النِّعمة ، فتعرَّض لمعروفه ، وأفضى إليه بهمِّه ، وشكا ما نزل به . ثمَّ قال : وإنِّي قد أمَّلتك وظنِّي بك أن تصطفيَني لمنادمتك ، أو تُلحِقني بخدمتك ، وما أريد إلا الكفافَ من العيش ، فإن لم تبلغ بي ؛ فالقليل ؛ الذي يعيش به المُقلُّ ، وصعَّد[3] فيه الشَّابُّ ، وصوَّب . ثمَّ قال له : أتحسن أن تلطُف في حاجتي ؟ قال : سأبلغ في حاجتك ما تحبُّ . قال الشَّابُّ : ألك سابقةٌ في هذا . . ؟ أكنت قوَّاداً[4] . . . ؟ أتعرف كثيراتٍ منهنَّ ؟

فانتفض غضباً ، وهمَّ أن يبطش بالفتى ؛ لولا خوفه عاقبةَ الجريمة ، فاستَخْذَى ، ومضى لوجهه . وكان قد بلغ سوقاً ، فأمَّل أن يجد عملاً في بعض الحوانيت . غيرَ أنَّ أصحابَها جعلوا يزجُرونه مرَّةً ، ويطردونه مرَّةً ؛ إذ وقعت به ظنَّة التَّلصُّص ، وكادوا يُسلمونه إلى الشُّرطِيِّ ، فمضى هارباً ، وقد أجمع أن ينتحر ؛ ليقتل نفسه دهرَه ، وإمارتَه ، وبؤسَه جميعاً .

---

(١) هو كالقفّة ، يُعمل من الخُوص . (ع) .
(٢) « الكدية » : حرفة السائل الملحّ (الشحاذة) .
(٣) « صعّد » : صعَّد فيه النظر : تأمّله ناظراً إلى أعلاه وأسفله .
(٤) « قواداً » : هو الساعي بين الرجل والمرأة للفجور .

قالوا : ومرَّ في طريقه إلى مَصْرعه بامرأةٍ تبيع الفُجْلَ ، والبصلَ ، والكرَّاث(١) ، وهي بادنةٌ ، وضيئةٌ ، ممتلئةُ الأعلى ، والأسفل ، وعلى وجهها مَسحَةُ إغراءٍ ، فذكر غزَلهُ ، وفتنته ، واستغواءَه للنِّساء ، ونازعتْه النَّفسُ ، وحسب المرأةَ تكون له معاشاً ولهواً ، وظنَّها لا تُعجزه ، ولا تفوتُه وهو في هذا الباب خرَّاجٌ ولاجٌ(٢) منذ نشأ . . غير أنَّه ما كاد يراودها حتى ابتدرَته بلطمةٍ أظلم لها الجوُّ في عينيه ، ثمَّ هَرَّت(٣) في وجهه هَريراً منكَراً ، واستَعْدَت عليه السَّابلة ، فأطافوا به ، وأخذه الصَّفعُ بما قدُمَ ، وما حدُث ، وما زالوا يتَعاورونه(٤) ضرباً حتَّى وقع مغشيّاً عليه .

ورأى في غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب ، فضُرِب ، وحُبس ، وابتلي بالجنون ، وأرسل إلى المارستان ، وساح في مصائب العالم ، وطاف على نكبات الأمراء ، والسُّوقة(٥) بما يعي ، وما لا يعي ، ثمَّ رأى : أنَّه قد أفاق من الإغماء ، فإذا هو قد استيقظ من نومه على فِراشِه الوثير .

* * *

ويا ليت مَنْ يدري بعد هذا ! أغدا ابنُ الأمير على المسجد ، وأقبل على الفقراء يُحسن إليهم ، أم غدا على صاحبته ؛ التي امتنعت عليه ، فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار ؟

يا ليت من يدري ! فإنَّ الكتاب الذي نقلنا القصَّة عنه لم يذكر من هذا شيئاً ، بل قطع الخبرَ عندما انقطع الصَّفع .

* * *

---

(١) « الكراث » : بَقْل زراعي ، تُطبخ سُوقُه . والعامة في دمشق تُسمِّيه : « البراصية » .
(٢) « خراج ولاج » : الولاج : الكثير الولوج . يُقال : فلان خرَّاج ولاج ؛ أي : واسع الحيلة .
(٣) « هرَّت » : صاحت .
(٤) « يتعاورونه » : يتداولونه فيما بينهم .
(٥) « السوقة » : الرعية من الناس ، وأوساطهم .